النقابات الاسلامية

للأستاذ برنارد لويس

ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدوري

أكثر الكتاب والمؤرخون في سرد الوقائع ، ووصف أبهة القصور وعظمة السلطان ، وجعلوا التاريخ سلسلة حوادث متفرقة متباينة ، وأغفلوا التيارات الاجتماعية التي كان لها أكبر الأثر في سير التاريخ ، يظهر هذا خاصة في التاريخ الاسلامي . ثم تنبه بعض المستشرقين لذلك ، وحاول أن يسد بعض هذا النقص . ولدينا في هذه الرسالة (النقابات الاسلامية) عرض عام لنتيجة البحوث عن أهل الصناعات والحرف في الاسلام

وقد ترجمت هذه الرسالة لأنها تعطي القارئ العربي فكرة عن نظر بعض المستشرقين إلى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية في التاريخ الاسلامي . وقد نشرت هذه الرسالة في مجلة

Economic History Review, vol. VIII, No. 1937

ولكن النص العربي يحوي إضافات ومعلومات لم تنشر هناك ، وهي النتائج الأخيرة لأبحاث المؤلف عن الموضوع ؛ إذ تفضل بإضافتها أخيراً . (ع . د)

إن طوائف أهل الصناعات والحرف هي من أهم ظواهر الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى .

يندر أن يجد الإنسان أثراً لما نسميه روحاً مدنية (نسبة إلى مدينة) ، أو تنظيما بلدياً (نسبة إلى بلدية) في البلاد الإسلامية فقد كانت المدن الإسلامية في القرون الوسطى وقتية الظهور على الأغلب ، تتمتع بازدهار تجاري أو ثقافي لمدة قرن أو نحو قرن ، ثم تتضاءل أو تختفي . وبهذا ندر وجود طوائف بلدية معينة ، أو وحدات متحضرة دائمة . إذ أن روح التكتل والتنظيم المحلي التي كان لها أهمية كبرى في أوربا في القرون الوسطى ، منعت من الظهور في الحقل السياسي بتأثير الأوضاع السياسية المضطربة في البلاد الإسلامية ، وسيقت تلك الروح لأن تجد لها منفذاً في الحياة الاقتصادية . وهكذا نجد في أصناف الحرف في الإسلام ما يساوي تلك الحياة المحلية القومية التي هي من أبرز مظاهر تاريخ أوربا في القرون الوسطى .

كانت النقابة مهمة في الحياة الإسلامية لدرجة أن تخطيط المدينة — التي كانت تبنى على أساس سوق تجارية — كان يقرر في كثير من الأحيان حسب حاجات أصحاب الحرف . فنرى أن المدن الإسلامية من مراكش إلى جاوة ظهرت بنماثل عجيب متمركزة حول ثلاث أو أربع نقاط أساسية

فأول نقطة ثابتة هي سوق الصرافين ، وهو مركز هام دائماً في النظام الاقتصادي الثنائي الأساس في العملة ، كما كانت الحال في البلاد الإسلامية في القرون الوسطى

ونجد حواليه جامع المكوس ، ثم دار الضرب (إن وجدت هنالك واحدة) ، ثم سوق المزايدة ، ثم المحتسب وهو ملاحظ الأسواق . وهنا نجد الحالين أيضاً

والمركز الثاني هو القيصرية — وهي بناية محكمة تخزن فيها البضائع والنفائس الأجنبية ويحتمل أن يكون الاسم بيزنطي الأصل . والمركز الثالث هو سوق النزل — حيث يأتي النساء لبيع إنتاجهن اليدوي . وهنا نرى المتعاملين بالحاجات التي يشتريها النساء كالقصابين والخبازين وبائعي الخضر الخ ...

والمركز الرابع هو الجامعة أو المدرسة . وهي ملحقة عادة بمسجد ، وفيها يكوّن الطلبة والأساتذة نظام نقابة حقيقية . ويشتغل أهل الحرف حول هذه المراكز الأربعة ، كل صنف في سوقه الخاص . ويلاحظ من هذا أن توزيع النقابات يتبع هذا النظام في المدن المختلفة حيث توجد هذه المراكز الأربعة .

دعنا الآن ننظر في منشأ هذه النقابات ، وهو بحث يلاحظ فيه أنه لم يتقدم بالقدر الكافي

هناك رأي يقول بأن هذه النقابات هي متممة للنقابات البيزنطية التي سبقتها ، إذ كانت توجد نقابات متعددة في المقاطعات البيزنطية كسوريا ومصر حتى القرن السابع الميلادي . وليس من المحتمل أنه قضي عليها من قبل الفاتحين العرب الذين كانت سياستهم كما نعلم ترك الهيئات الإدارية والاقتصادية التي خلقها البيزنطيون كما كانت عليه تقريباً . ومع ذلك لا نرى أية إشارة إلى وجود نقابات إسلامية قبل القرن العاشر الميلادي ؛ أي بعد ثلاثة قرون (من بدء الفتح) ، كما أن هذه النقابات كانت من نوع يختلف تماماً عن النقابات الموجودة قبل الفتح الإسلامي . وليس لدينا إلا ملاحظات قصيرة متقطعة (عن النقابات) خلال

هذه الفترة وأولها جلة فى تاريخ ابن عذارى المراكشى إذ يقول عن والى أفريقية والمغرب سنة ٧٧٠ م (١٥٥هـ) : « وكان يزيد (بن حاتم) هذا حسن السيرة فقدم أفريقية وأصلحها ورتب أسواق القيروان وجعل كل صناعة فى مكانها[١] »

ومع أن الكتاب الذى يحتوى هذا النص قد كتب فى القرن العاشر فلا مانع من قبول صحة هـذا الخبر وهو خبر طريف فى ذاته ، إذ أنه يظهر أن الأمير العربى وضع المال والأسواق فى القيروان ، وهى مدينة جديدة بناها العرب الفاتحون ، تحت نفس الإدارة والمراقبة كما كان يفعل الحاكم البيزنطى فى المدن المجاورة . ولكن يظهر لى أن استنتاج وجود نقابات عربية فى القيروان من هذه العبارة ، كما فعل « فون كريمر Von Kremer [٢] » و « آجر Atger [٣] » غير مؤيد بالبيانات الموجودة

وفى نهاية القرن التاسع الميلادى نجد عدداً لا بأس به من المصادر يشير إلى وجود شىء من نظام التكتل بين التجار وأصحاب الحرف . لكن هذه الأصناف لم تصل بعد إلى درجة يصح اعتبارها كنموذج للأصناف الإسلامية . وإنما هى مجرد تنظيم عام وضبط للأسواق والحرف من النوع الموصوف فى المصادر البيزنطية المعاصرة[٤] يمكن أن نستنتج من هذه الإشارات أن الأمراء المسلمين احتفظوا بأشكال السيطرة العامة التى كانت للإدارة البيزنطية على الحرف — على الأقل فى معاملاتهم مع الصناع من غير العرب وغير المسلمين — وربما امتد ذلك حتى إلى المسلمين أنفسهم . وعلى كل حال فإننا نجد فى القرن التالى تطوراً ظاهراً فيما يسمى بالأصناف الإسلامية ، وحينئذ نجدها من نوع لا يصح تعليله بالتأثير أو التراث البيزنطى . وتوجد نظرية أخرى بجانب هذه النظرية يتطلب فحصها الانتقال إلى موضوع قد يجهله غير المستشرقين

بدأ المستشرقون فى السنوات الأخيرة يتأكدون أكثر فأكثر أن المذهب السنى فى العصر الأول للخلافة لم يكن أبداً مذهب الطبقات العامة ، وكلما ازدادت دراسة الباحث فى الأدب الإسلامى فى القرون الوسطى ازداد الاتضاح من أن المذهب السنى كان ينظر إليه فى كل محل كدين طبقة مسيطرة ، دين الدولة وميزة الأرستقراطية العربيـة الحاكمة[١] وقد كانت هذه نظرية الفاتحين أنفسهم فى الأدوار الإسلامية الأولى ، ولقد كانت الأكثرية الساحقة بين رعايا الخليفة — لقرون عديدة بعد الفتح الإسلامى — غير سنية تكره المذهب السنى كرمز لسطوة طبقة أجنبية حاكمة تتمتع بامتيازات خاصة

ومع ذلك كان الشعور الدينى قوياً بين الطبقات العامة ، وقد تجلى هذا الشعور بظهور سلسلة فرق متزندقة منشقة منذ القرن الثامن الميلادى حتى الفتح المغولى ، وتتصف جميع هذه الفرق تقريباً بفلسفة خاصة Symenetistic تحتوى عناصر مقتبسة من فرق سبقت العصر الإسلامى كالأفلاطونية الحديثة والمانوية والمزدكية وبفلسفة اجتماعية ثورية فيها عامل المساواة بين الأفراد وبتنظيم سرى يشبه النظام الماسونى ، وهى عادة من أفراد من مختلف الطوائف Interconfessional مع درجات من التنشيء والتهذيب ، ونجد مثلاً عصرياً لنجاح هذه الفرق وفشل المذهب السنى فى حالة الهولنديين فى الهند الصينية (أندونيسيا) والفرنسيين فى أفريقا الغربية ، حيث على الرغم من قواها المتفوقة نجد البعثات المسيحية تتقدم بين السكان الوطنيين بنجاح أقل من نجاح الدعوة الإسلامية . فهنا أيضاً يرى الزنجى أو الإندونسى أن المسيحية متصلة بحكم أجنبى ، فيفضل أن يكون مسلماً من الدرجة الأولى على أن يكون مسيحياً من الدرجة الثانية

بلغت هذه الحركات الدينية أوجها فى القرنين العاشر والحادى عشر . فقد كانا مرحلتى تطور صناعى وتكتل حضرى . فظهور نظام راق للبنوك مركزها بغداد ، تغطى فروعها الإمبراطورية ، ساعد على تجهيز الدولة بالنقود ، وعلى حفظ النقود بصورة عامة أساساً للاقتصاد . وقد أثر هذا على النمو الصناعى ، فأنتج تمركزاً فى رأس

(١) كتاب ـ البيان المغرب فى حلى المغرب ـ لابن عذارى المراكشى طبعة ليدن سنة ١٨٤٨ جـ١ ص٦٨

(٢) Von Kremer - Kulturgeschichte des Orients, Vienna 1877, ii, p. 187 ص ٧

(٣) Atger - Les corporatims Tunisiennes, Paris, 1909

(٤) راجع Von Kremer و Metz - Renaisiamce of Islam

(١) انظر Von Vloten - Recherches sur la Bomènation Arabe Amesterdam, 1849 أنظر أيضا Becher - Islam Léudien Bartold - musulman Culture, Calcutta, et 34. 72-6, 100-102 ومما يسترعى النظر أن التقسيم بين السنة والمنشقين hérébes لا يناسب تماماً التقسيم بين العرب وغير العرب فالطبقة الحاكمة فى فارس من عهد الدولة الساسانية انضمت إلى المذهب السنى بينما نجد الطبقات الفقيرة من العرب فى سورية والعراق تأثرت بالمانوية وبزندقات أخرى

المال والعمل[1] كما وقد النمو السريع فى رأس المال حسب المنتظر مشاكل اجتماعية خطيرة . إذ نقرأ عن سلسلة اضطرابات خطيرة فى بغداد ، وعن ثورة الزنج فى أسفل العراق فى القرن التاسع ، ثم عن ظهور فرق دينية باستمرار . وفى هذا العصر زلزل العالم الإسلامى بحركة ثورية سياسية اقتصادية ثقافية فى نفس الوقت أنتجت الخلافة الفاطمية فى القاهرة . فالحركة الاسماعيلية (أو القرمطية) — كما تسمى هذه الحركة تبعاً لاسم أهم شعبها وأكثرها أهمية — تميزت بآراء حرة عجيبة . إذ وجهت دعوتها إلى مختلف الفرق الإسلامية — من سنة وشيعة — ومختلف الأديان من يهود ونصارى ، وزرادشتية على السواء باسم الحركة الثقافية والعدالة الاجتماعية ، ويصعب البت فى فلسفتها الحقيقية لأن مصادرنا إما سنية فتكون شديدة العداء متحيزة، أو اسماعيلية تنتمى إلى عصر متأخر عند ما طرأ على المبادئ الأولى تعديل واسع . فمثلاً نرى أن فخر الدين الرازى وصم الغزالى والشهرستانى والبغدادى بالتعصب وقلة فهمهم لآراء خصومهم . إذ روى عن حديث له مع المسعودى عن الكتب قال : « فقد ذكر المسعودى كثيراً منها إلى أن ذكر كتاب الملل والنحل للشهرستانى . فقلت: نعم، إنه كتاب حكى فيه مذاهب أهل العلم بزعمه إلا أنه غير معتمد عليه ، لأنه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى بالفرق بين الفرق ، من تصانيف الأستاذ أبى منصور البغدادى ، وهذا الأستاذ كان شديد التعصب على المخالفين ، فلا يكاد ينقل مذهبهم على الوجه الصحيح[2] ، وقد أدرك الغزالى الخاصة الاجتماعية للمذاهب المنشقة ، وقال فى الكلام عن الباطنية : « فاستبان أن ما ذكروه تلبيس بعيد عن التحقيق وأن العامى المنخدع به فى غاية العمى ، لأنهم يلبسون على العوام » ثم قال أيضاً عنهم : « فما هولوا من خطر الخطأ مستحقر فى نفسه عند المحصلين من أهل الدين ، وإنما يعظم به الأمر على العوام الغافلين عن أسرار الشرع » . وعند الكلام على الدعاة الباطنيين قال : « وهؤلاء الدعاة تواطئوا على هذا الاختراع ليتوسلوا به إلى استتباع العوام واستباحة أموالهم فيتوصلون به إلى آمالهم)[1]

ومن الواضح على كل حال أن الحركة الإسماعيلية كانت مبنية على نوع من التفكير الحر تعترف بقرابة الأديان جميعاً وتنبذ الشريعة الإسلامية ، وتستند إلى مبدأ من العدل والتسامح والمساواة التامة[2] ؛ وبطريقة حاذقة من التفسير تعرف بالتأويل أسندت هذه المبادئ بنصوص من القرآن والكتب الدينية الإسلامية وكذا عوملت كتب اليهود والنصارى المقدسة بنفس الطريقة ...

وقد ذكر عبد الله الإسماعيلى فى عرضه للأسس الاجتماعية للاسلام أنه « ما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل وهو الإله الذى يزعمونه وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار حتى استعبدهم بذلك عاجلاً ، وجعلهم له فى حياته ولذريته بعد وفاته خولا ، واستباح بذلك أموالهم بقوله : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى (الشورى ٢٣) فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة ، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون . وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج[3] »

روى هذا النص مؤلف سنى توفى سنة ١٠٣٧ ، كمثل من زيغ القرامطة وشك بعض الباحثين فى صحته . لكن النص وإن كان ركيك التعبير ، فإنه لا يوجد فيه غير الحط من شخصية الرسول ، ولا يمكن تأييده بنصوص من الكتب الاسماعيلية الغديمة القليلة أو المتأخرة التى لدينا .

« يتبع » عبد العزيز الدورى

(١) أنظر كتاب Fixhil, The Ougui of bauhingui Medieual, M ets. Islam. J. R. A. S. 1931 p. 339 – 561 وكتاب آخر لنفس المؤلف Jems in II Social life of Medural Islam, 1937

(٢) لاحظ ملحق مناظرات فخر الدين الرازى ص ٢٦٢ ، القاهرة سنة ١٩٣٧

(١) ص « كتاب فضائح الباطنية للغزالى نشره كولد زيهر طبعة ليدن ١٩١٩

(٢) وحتى الوقت الحاضر نجد أهل الحق أو — أهل حق — وهم بقية إحدى هذه الفرق تسكن فى بعض قرى شمال شرق إيران تحتفظ بشىء من هذه الصفات فتحتوى إحدى قصائد التعزية عندهم الوعد بأن سياتب السلاطين . ويلاحظ البروفسور فينورسكى بصورة خاصة الميزة الشعبية Popular لهذا الدين إذ يقول إنه « معتنق بصورة خاصة من قبل الطبقات الوضيعة من بدو وقرويين ودراويش وسكان المحلات الفقيرة . . الخ) لاحظ ملحق دائرة المعارف الاسلامية ، مادة — أهل حق —)

(٣) ص « البغدادى : الفرق بين الفرق . القاهرة ١٩١٠ ص ٢٨١ و ٢٨٢